المجموعة التاريخية للصغار

عجائب رحلة ابن بطوطة

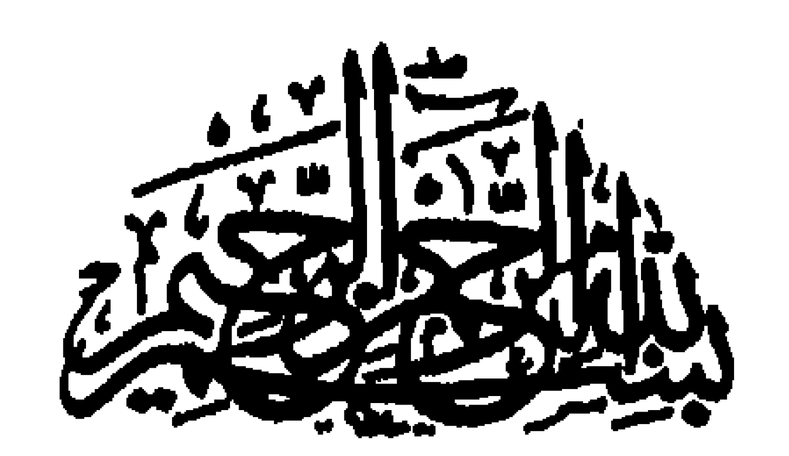
رقصةُ الفيلِ



إعداد
عبدالقادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبدالله فرهود

جميع الحقوق محفوظة لدار القلم العربي بحلب ولا يجوز إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
أو طباعته ونسخه أو تسجيله إلا بإذن مكتوب من الناشر



منشورات

دار القلم العربي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

رَقْصَةُ الفِيلِ

التَأَمَ مَجْلِسُ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ بِمَدِينَةِ فَاسَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَكَانَ فِيهِ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مَلِكُ فَاسَ ، وَنَدِيمُهُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، أَبُو عَبْدِ اللهِ شَمْسُ الدِّينِ ، وَكَاتِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ . وَبَدَأَ السُّلْطَانُ الحِوَارَ بِسُؤَالٍ تَوَجَّهَ بِهِ إِلَىٰ نَدِيمِهِ وَمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

ـ هَلْ وَقَعَ لَكَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ أَنْ التَقَيْتَ بِرَجُلٍ صَالِحٍ جَمَعَ خَيْرَيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَإِنْ شِئْتَهُ كَانَ مِنَ المُجَاوِرِينَ وَالمُقِيمِينَ فِي الرُّبُطِ حَوْلَ المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ أَمِيراً مِنْ أُمَرَاءِ السِّيَادَةِ عَلَىٰ رِقَابِ النَّاسِ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ فِي سِيرَةِ الشَّيْخِ سَعِيدِ الكِلالِيِّ نَمُوذَجاً عَجِيباً لاجْتِمَاعِ الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ كَالذِي ذَكَرْتَ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ !

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ اعْلَمْ يَا مَوْلايَ أَنَّ رَجُلاً صَالِحاً مِنْ أَهْلِ العِبَادَةِ وَالتَّنَسُّكِ كَانَتْ إِقَامَتُهُ مُجَاوِراً بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ فِي رِبَاطِ كِلالَةَ ، وَكَانَ شَيْخاً ذَا هَيْبَةٍ وَوَقَارٍ وَجَلالٍ ، يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ أَمِيرُ مَكَّةَ أَبُو نُمَيٍّ وَيُقَبِّلُ يَدَهُ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ طَالِباً بَرَكَاتِهِ وَدَعَوَاتِهِ الصَّالِحَةَ . وَكَانَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ الكِلالِيُّ مَيَّالاً إِلَىٰ الإِكْثَارِ مِنَ التَّصَدُّقِ وَإِعْطَاءِ المَسَاكِينَ وَالمُحْتَاجِينَ بِرُغْمِ زُهْدِهِ فِي جَمْعِ المَالِ لِنَفْسِهِ . فَلَمَّا قَلَّ المَالُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَافْتَقَرَ قَصَدَ مَلِكَ الهِنْدِ وَاسْمُهُ مُحَمَّدْ شَاهُ فَأَعْطَاهُ مَالاً كَثِيراً عَادَ بِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ حَيْثُ كَانَ يُقِيمُ وَيُجَاوِرُ . وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ أَحَدُ الأُمَرَاءِ لِعِلْمِهِ بِخَبَرِهِ وَطَالَبَهُ بِجَمِيعِ مَا حَصَلَ لَدَيْهِ مِنَ المَالِ ، فَلَمَّا امْتَنَعَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ عَنْ الاسْتِجَابَةِ لِمَطْلَبِ الأَمِيرِ الطَّمَّاعِ سَاقَ إِلَيْهِ الأَمِيرُ رِجَالَهُ وَأَعْوَانَهُ فَحَبَسَهُ وَعَذَّبَهُ وَابْتَزَّ مِنْهُ المَالَ كُلَّهُ . فَعَادَ

الشَّيْخُ سَعِيدُ إِلَىٰ بِلادِ الهِنْدِ فَأَكْرَمَ مَلِكُهَا وِفَادَتَهُ كَالمَرَّةِ الأُولَىٰ وَأَكْثَرَ ، وَشَارَكَهُ فِي الإِكْرَامِ الأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ مِنْ عَرَبِ الشَّامِ ، وَمُصَاهِرِي مَلِكِ الهِنْدِ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ كَرَمِ مَلِكِ الهِنْدِ وَإِكْرَامِهِ لِلشَّيْخِ سَعِيدٍ أَنْ خَلَعَ عَلَيْهِ الخُلَعَ النَّفِيسَةِ مِنَ الحَرِيرِ وَالجَوَاهِرِ ، وَبَعَثَ مَعَهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ لِيَشْتَرِيَ بِهَا الخَيْلَ العِتَاقَ وَالسِّلَعَ التِي يَخْتَارُهَا ، وَبَعَثَ مَعَهُ بِحَارِسٍ شَدِيدٍ يُحَامِي عَنْهُ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ قُطَّاعُ الطُّرُقِ وَاللصُوصُ .

وَصَلَ سَعِيدٌ الكُلالِيُّ بِأَحْمَالِهِ الذَّاخِرَةِ إِلَىٰ جَزِيرَةِ سَقْطَرَةَ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ لُصُوصِ الهِنْدِ وَكَانُوا كَثْرَةً ، فَرَمَىٰ حَارِسُ القَافِلَةِ مِنْهُم عَدَدًا ، وَلَكِنَّهُم تَمَكَّنُوا مِنْهُ وَقَتَلُوهُ . وَذَهَبَ اللصُوصُ بِالمَالِ وَتَرَكُوا الشَّيْخَ سَعِيدا يَذْهَبُ بِمَرْكَبِهِ حَيْثُ يِشَاءُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ إِنَّهُ شَيْخٌ مُغَامِرٌ تَعِيسُ الحَظِّ خَسِرَ مَالَهُ مَرَّتَيْنِ ، فَكَيْفَ انْتَهَىٰ بِهِ الأَمْرُ ؟ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ كَانَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ الكُلالِيُّ شُجَاعاً ثَابِتاً قَوِيَّ الإِرَادَةِ ، لَمْ يَسْتَسْلِم لِمَا أَصَابَهُ عَلَىٰ أَيْدِي لُصُوصِ البَحْرِ مِنَ الهُنُودِ . وَفَكَّرَ أَنْ تَكُونَ لَهُ يَدٌ فِي إِحْقَاقِ الحَقِّ وَإِقْرَارِ النِّظَامِ فِي تِلْكَ البِلادِ النَّائِيَةِ . وَاسْتَغَلَّ بِذَكَاءٍ نَادِرٍ فُرْصَةَ مَيْلِ المَلِكِ الهِنْدِيِّ إِلَىٰ مُهَادَنَةِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ التِي آلَتْ إِلَىٰ مِصْرَ ، حُبّاً وَوَلاءً فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلاَّ أَنْ أَنْهَىٰ رَغْبَتَهُ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ أَبِي العَبَّاسِ مُبْدِياً اسْتِعْدَادَهُ للتَّوَلِّي عَلَىٰ إِمَارَةٍ فِي الأَرَاضِي الهِنْدِيَّةِ بِمُوجَبِ كِتَابٍ يُقَدِّسُه مَلِكُ الهِنْدِ وَيَحْتَرِمُهُ . وَهَكَذَا كَانَ ، فَتَزَوَّدَ بِكِتَابٍ مِنَ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ يَأْمُرُ بِتَوَلِّي سَعِيدِ الكُلالِيّ عَلَىٰ إِقْلِيمٍ يَخْتَارُهُ فِي غَرْبِيِّ الهِنْدِ ، وَيَأْمُرُ مَلِكَهَا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

رَكِبَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ البَحْرَ مِنْ مِصْرَ إِلَىٰ اليَمَنِ إِلَىٰ الهِنْدِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ كُنْبَايتَ وَهِيَ عَلَىٰ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً مِنْ دَهْلِي حَيْثُ مَقَرُّ عَرْشِ مَلِكِ الهِنْدِ ، قَامَ صَاحِبُ الأَخْبَارِ بِإِعْلامِ المَلِكِ بِقُدُومِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ وَبِأَنَّهُ يَحْمِلُ أَمْراً وَكِتَاباً مِنَ الخَلِيفَةِ بِتَوْلِيَتِهِ . فَوَرَدَ الأَمْرُ بِبَعْثِهِ إِلَىٰ الحَضْرَةِ المَلَكِيَّةِ مُعَزَّزاً مُكَرَّماً . .

هُنَا ، عَلَّقَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ عَلَىٰ مَايَسْمَعُ وَهُوَ يَهُزُّ رَأْسَهُ :

ـ مَاشَاءَ اللهُ . . مَاشَاءَ اللهُ . . شَيْخُنَا يَفْتَحُ بِلادَ الهِنْدِ بِأَمْرِ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ ! . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ جَلَّ وَعَلا : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ لَقَدْ أَصَبْتَ القَوْلَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ، وَبَقِيَ أَنْ تَقُصَّ عَلَيْنَا مَا تَمَّ مِنْ أَمْرِ الشَّيْخِ الصَّالِحِ الأَدِيبِ صَاحِبِكَ سَعِيدٍ الكُلالِيِّ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ رَقَصَ لَهُ الزَّمَانُ رَقْصَةَ الفِيلِ ، وَمَاأَدْرَاكَ مَا رَقْصَةُ الفِيلِ ، يَا مَوْلايَ . . ؟

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُتَعَجِّباً مُتَلَهِّفاً إِلَىٰ سَمَاعِ القِصَّةِ :

ـ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ . . وَمَاذَا تَعْنِي بِرَقْصَةِ الفِيلِ ؟

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ الشَّيْخَ سَعِيداً الكُلالِيَّ حَيْنَ قَرُبَ مِن الحَضْرَةِ المَلَكِيَّةِ ، بَعَثَ مَلِكُ الهِنْدِ الأُمَرَاءَ وَالقُضَاةَ وَالفُقَهَاءَ لِتَلَقِّيهِ ، ثُمَّ خَرَجَ هُوَ نَفْسُهُ لاسْتِقْبَالِهِ فَتَلَقَّاهُ وَعَانَقَهُ ، وَلَمَّا دَفَعَ لَهُ الأَمْرَ المَكْتُوبَ بِتَنْصِيبِهِ قَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ . وَلَمَّا أَهْدَاهُ الشَّيْخُ سَعِيدٌ المُنَصَّبُ أَمِيراً صُنْدُوقاً فِيهِ خُلَعٌ وَهَدَايَا صَادِرَةٌ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ العَبَّاسِي إِلَىٰ مَلِكِ الهِنْدِ ، احْتَمَلَ مَلِكُ الهِنْدِ الصُّنْدُوقَ عَلَىٰ رَأْسِهِ وَمَشَىٰ بِهِ خُطُوَاتٍ ، وَمَا لَبِثَ أَنْ فَتَحَهُ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ وَارْتَدَىٰ مِنْهُ ثَوْباً جَاءَهُ خِلْعَةً مِنَ الخَلِيفَةِ ، وَأَصْدَرَ أَمْراً إِلَىٰ حَاشِيَتِهِ وَرِجَالِهِ أَنْ يَضُمُّوا مَوْكِبَ الشَّيْخِ سَعِيدٍ إِلَىٰ مَوْكِبِهِ وَأَنْ يُرْكِبُوهُ عَلَىٰ الفِيلِ ، وَيُدْخَلَ بِهِ المَدِينَةَ كَذَلِكَ ، وَهُوَ مَحْفُوفٌ بِالجُنْدِ وَالأَعْوَانِ وَحَوْلَهُ وَزِيرَانِ مِنَ العَرَبِ المُسْلِمِينَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

كَانَتْ المِدِينَةُ قَدْ زُيِّنَتْ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَنُصِبَتْ فِيهَا إِحْدَىٰ عَشْرَةَ قُبَّةً مِنَ الخَشَبِ ، وَكُلُّ قُبَّةٍ مِنْهَا أَرْبَعُ طَبقَاتٍ ، فِي كُلِّ طَبقَةٍ طَائِفَةٌ مِنَ المُغَنِّينَ رِجالاً وَنِسَاءً ، وَالرَّاقِصَاتُ وَكُلُّهُم مَمَالِيكُ السُّلْطَانِ ، وَالقُبَّةُ مُزَيَّنَةٌ بِثِيَابِ الحَرِيرِ المُذَهَّبِ أَعْلاهَا وَأَسْفَلَهَا وَدَاخِلَهَا وَخَارِجَهَا ، وَفِي وَسَطِهَا ثَلاثَةُ أَحْوَاضٍ مِنْ جُلُودِ الجَوامِيسِ مَمْلُوءَةٍ مَاءً قَدْ حُلَّ فِيهِ الجُلاَّبُ ، يَشْرَبُهُ كُلُّ وَارِدٍ وَصَادِرٍ ، وَلا يُمْنَعُ مِنْهُ أَحَدٌ ، وَكُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ يُعْطَىٰ بِعْدَ ذَلِكَ وَرَقَةً مِنْ تَوَابِلِ الهِنْدِ وَبَهَارَاتِهَا ، إِذَا مَضَغَهَا المَاضِغُ طَابَتْ بِهَا نَكْهَتُهُ وَرَائِحَةُ فَمِهِ وَمَايَلْبَثُ أَنْ تَحْمَرَّ وَجْنَتَاهُ ، وَتَقْوَىٰ لِثَاتُهُ ، بِذَا تُذَادُ عَنْهُ الصَّفْرَاءُ ، وَيَعَافُهُ الغَثَيَانُ وَتَهْضُمُ مَعِدَتُهُ مَا يَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ ، فَإِذَا بِهِ يِشْعُرُ بِالهَنَاءَةِ وَطِيبِ العَيْشِ مِنْ دُونِ خَمْرَةٍ وَلا تَأْثِيمٍ . . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ أُحِبُّ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا جَرَىٰ لِلشَّيْخِ المُؤَمَّرِ سَعِيدِ الكُلالِيِّ ، وَأَنْ تَصِلَ بِي إِلَىٰ نِهَايَةِ المَطَافِ بَعْدَ أَنْ اعْتَلَىٰ ظَهْرَ الفِيلِ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَمَّا رَكِبَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ عَلَىٰ الفِيلِ ، فُرِشَتْ لَهُ ثِيَابُ الحَرِيرِ بَيْنَ يَدَي الفِيلِ يَطَأُ عَلَيْهَا الفِيلُ مِنْ بَابِ المَدِينَةِ إِلَىٰ دَارِ السُّلْطَانِ ، وَفِي نِهَايَةِ اسْتِعْرَاضِ المَوْكِبِ وَرَقْصَةِ الفِيلِ بِصَاحِبِ المَغْنَمِ وَالحَظِّ السَّعِيدِ أُنْزِلَ الأَمِيرُ المُنَصَّبُ ضَيفاً بِدَارٍ قَرِيبَةٍ مِنْ دَارِ المَلِكِ ، وَبَعَثَ لَهُ المَلِكُ بِأَمْوَالٍ طَائِلَةٍ بَعْضُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ ، وَبَعْضُهَا الآخَرُ مِنَ الأَلْبِسَةِ الحَرِيرِيَّةِ وَالخِلَعِ السَّنِيَّةِ وَالجَواهِرِالثَّمِينَةِ . أَمَّا مَا كَانَ مِنَ الأَثْوَابِ المُعَلَّقَةِ وَالمَفْرُوشَةِ بِالقِبَابِ ، وَالمَوْضُوعَةِ بَيْنَ يَدَي الفِيلِ فَلا تَعُودُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ وَلا إِلَىٰ الأَمِيرِ المُنَصَّبِ ، بَلْ يَأْخُذُهَا أَهْلُ الطَّرَبِ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ الذِينَ يَصْنَعُونَ القِبَابَ ، وَكَذَلِكَ يُعْطَىٰ خُدَّامُ الأَحْوَاضِ المَبْذُولَةِ لِلشَّارِبِينَ ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الخَدَمِ وَالأَعْوَانِ وَالحَشَمِ . . لَقَدْ كُنْتَ سَأَلْتَنِي يَا مَوْلايَ عَنْ مَآلِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ المُنَصَّبِ أَمِيراً عَلَىٰ إِقْطَاعٍ مِنَ الهِنْدِ ، وَقَدْ أَنْزَلَهُ السُّلْطَانُ الهِنْدِيُّ ضَيْفاً بِجِوَارِهِ شَهْراً بِأَرْبَعَةِ أَسَابِيعَ وَفِي كُلِّ جُمْعَةٍ يُقْرَأُ كِتَابٌ عَلَىٰ مِنْبَرِ الخَطَابَةِ هُوَ

كِتَابُ الخَلِيفَةِ بِتَنْصِيبِ أَمِيرِهِ عَلَىٰ البِلادِ ، زِيَادَةً بِالتَّشْرِيفِ وَالإجْلالِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَصُدُوعاً بِالأَمْرِ المُطَاعِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَقَامَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ شَهْراً مِنَ الزَّمَانِ وَشَهِدَ لَهُ الشَّاهِدُونَ أَرْبَعَ جُمَعٍ مُتَوَالِيَاتٍ ، أَرْسَلَهُ مَلِكُ الهِنْدِ لِتَوَلِّي الإِمَارَةِ فِي (كُنْبَايت) . . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الأَمْرُ لِلشَّيْخِ سَعِيدٍ فِي مَنْصِبِهِ ، أَحَبَّ مَلِكُ الهِنْدِ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ العَبَاسِيِّ بِمَقَامِهِ فِي مِصْرَ فِي ذَلِكَ الأَوَانِ ، وَأَنْ يُنْهِيَ إِلَيْهِ وَلاءَهُ وَطَاعَتَهُ وَتَقَرُّبَهُ مِنَ الإسْلامِ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولاً عَنْ طَرِيقِ البَحْرِ يَطْلُبُ إِلَىٰ مَوْلاهُ بِالخِلافَةِ المُبَارَكَةِ ، أَنْ يُقِرَّهُ عَلَىٰ سُلْطَانِهِ فِي بِلادِ الهِنْدِ ، وَكَادَتْ الأَرْضُ تَمِيدُ تَحْتَ قَدَمِي الشَّيْخِ سَعِيدٍ لَولا أَنْ أَنْقَذَهُ الله وَبَيَّضَ وَجْهَهُ أَمَامَ السُّلْطَانِ الهِنْدِيِّ وَالخَلِيفَةِ فِي مِصْرَ ، وَسَلَّمَ الله أَمْرَهُ بِفَضْلِ تَقْوَاهُ وَصَلاحِهِ ، وَلاشَكَّ أَنَّ الله أَدْرَىٰ بِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ .

عِنْدَ هَذَا الحَدِّ مِنَ الكَلامِ ، طَابَتْ نَفْسُ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ ، إلاَّ أَنَّهُ شُغِلَ بِمَا قَالَهُ مُحَدِّثُهُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ أَنَّ الأَرْضَ كَادَتْ أَنْ تَمِيدَ تَحْتَ قَدَمَي الشَّيْخِ سَعِيدٍ ، فَسَأَلَهُ قَائِلاً :

ـ كَيْفَ اسْتَقَرَّتْ الأُمُورُ لِلأَمِيرِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ الكُلالِيِّ بَعْدَ أَنْ كَادَتْ الأَرْضُ تَمِيدُ مِنْ تَحْتِهِ ؟ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَتَعَلَّمَ مِنْ تَجَارُبِ الآخَرِينَ ، وَالاتِّعَاظَ بِمَا وَقَعَ لَهُمْ فَلَقَدْ قِيلَ : (السَّعِيدُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ اتَّعَظَ بِنَفْسِهِ) .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ جَنَّبَكَ اللهُ الشَّقَاءَ يَا مَوْلايَ ، وَجَعَلَ اتِّعَاظَكَ بِغَيْرِكَ لا بِنَفْسِكَ . . وَمِثْلُكَ مَنْ لا يَتَعَجَّبُ مِمَّا جَرَىٰ لِلشَّيْخِ سَعِيدٍ لأَنَّكَ مِثْلَهُ مَحْسُودٌ فِي جَاهِكَ وَسُلْطَانِكَ ، وَلَمْ يُخْطِىءْ مَنْ قَالَ : كُلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَهَلْ تَعَرَّضَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ أَمِيرُ الهِنْدِ لِلحَسَدِ اللئِيمِ ؟ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ بَعْدَ أَنْ رَقَصَتْ الدُّنْيَا لِلأَمِيرِ سَعِيدٍ رَقْصَةَ الفِيلِ ، رَقْصَةً ذَهَبَتْ

مَثَلاً ، وَشَرَّفَ الله عَبْدَهُ بِمِقْدَارِ الإِمَارَةِ عَنْ اسْتِحْقَاقٍ وَجَدَارَةٍ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَتْ أَفَاعِي الحَسَدِ وَالحِقْدِ وَالنَّمِيمَةِ تَسْعَىٰ سَعْيَهَا ، وَتَفُحُّ فَحِيحَهَا حَتَّىٰ كَشَفَ الله أَمْرَهَا وَرَدَّ كَيْدَهَا فِي نَحْرِهَا . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِتَلَهُّفٍ وَتَعَجُّبٍ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ !

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ مَا جَرَىٰ يَا مَوْلايَ ، وَهَذَا مَا حَدَّثَنِي بِهِ الأَمِيرُ الشَّيْخُ سَعِيدٌ لَدَىٰ زِيَارَتِي لإِمَارَتِهِ فِي بِلادِ الهِنْدِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . . مَا جَرَىٰ يَا مَوْلايَ أَنَّ شَيْخاً مِنْ شُيُوخِ مِصْرَ اسْمُهُ رَجَبٌ كَانَ يُظْهِرُ الصَّدَاقَةَ وَالوِدَّ لِلشَّيْخِ سَعِيدِ الكُلالِيِّ تَنَاهَىٰ إِلَىٰ سَمْعِهِ مَا حَصَلَ لِلشَّيْخِ سَعِيدٍ مِنَ العِزِّ وَالنِّعْمَةِ ، وَبُلُوغِهِ مَنْصِبَ الإِمَارَةِ بِتَوْصِيَةٍ مِنَ الخِلافَةِ ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلاَّ انْطَلَقَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَنْدَادِهِ مِنْ مَرْفَأِ الأُبُلَّةِ عَلَىٰ مَرْكَبٍ مُجَهَّزٍ إِلَىٰ بِلادِ الهِنْدِ ، وَحَرِصَ عَلَىٰ أَنْ يَلْقَىٰ السُّلْطَانَ الهِنْدِيَّ فِي دِهْلِي قَبْلَ أَنْ يَلْقَىٰ صَدِيقَهُ الأَمِيرَ سَعِيداً الكُلالِيَّ فِي إِمَارَتِهِ ، وَقَدْ مَثُلَ بَيْنَ يَدَي السُّلْطَانِ

بِكِتَابِ عَزْلٍ مُزَوَّر ، وَزَعَمَ أَمَامَ السُّلْطَانِ أَنَّ الشَّيْخَ سَعِيداً هُوَ الذِي جَاءَ السُّلْطَانَ بِالتَّزْوِيرِ وَأَنَّهُ قَدْ اشْتَرَىٰ بِأَمْوَالِهِ جَمِيعَ الخِلَعِ التِي أَهْدَاهَا لِلسُّلْطَانِ بِاسْمِ الخَلِيفَةِ لِيَحْصُلَ مِنْهُ عَلَىٰ الوِلايَةِ ، وَهَكَذَا كَانَ . . وَقَدْ شَاءَ الله تَعَالَىٰ أَنْ يَكْشِفَ بُطْلانَ هَذَا الزَّعْمِ وَهَذِهِ الوِشَايَةِ لِفَوْرِهَا وَدُونَمَا إِمْهَالٍ وَلا إِهْمَالٍ ، وَتِلْكَ مِنْ كَرَامَاتِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ التِي أَكْرَمَهُ بِهَا الله . . فَلَقَدْ نَادَىٰ المُنَادِي فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ الهِنْدِيِّ بِوُصُولِ وَفْدٍ مِنَ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ فِي مِصْرَ وَمَعَهُ كِتَابٌ يُقِرُّ الأَمِيرَ سَعِيداً عَلَىٰ إِمَارَتِهِ وَيُوصِي بِهِ خَيْراً . .

اسْوَدَّ وَجْهُ الوَاشِي النَّمَّامِ لِتَوِّهِ وَحَاوَلَ أَنْ يَتَسَلَّلَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مَجْلِسِ السُّلْطَان إِلاّ أَنَّ السُّلْطَانَ أَمَرَ بِالقَبْضِ عَلَيْهِ وَمَنْ مَعَهُ إِلَىٰ حِينِ الفَرَاغِ مِنْ اسْتِقْبَالِ وَفْدِ الخَلِيفَةِ ، وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ خَلا إِلَىٰ رَجَبٍ النَّمَّامِ الحَسُودِ وَزُمْرَتِهُ وَقَرَّ قَرَارُهُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ وَمَنْ مَعَهُ إِلَىٰ الأَمِيرِ سَعِيدٍ لِيُصْدِرَ فِيهِم حُكْمَهُ ، وَيَنْتَقِمَ لِنَفْسِهِ بِالشَّكْلِ الذِي يُرِيدُ . .

وَلَمَّا مَثُلَ الشَّيْخُ رَجَبٌ وَجَمَاعَتُهُ بَيْنَ يَدَي الأَمِيرِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ وَأَلَمَّ بِخُلاصَةِ تَامُرِهِ عَلَيْهِ ، وَجَدَهُ مُطْرِقاً أَسَفاً وَحُزْناً وَنَدَماً ، مُبْدِياً اسْتِعْدَادَهُ

لِيَهْوِيَ إِلَىٰ الأَرْضِ مُقَبِّلاً أَقْدَامَ صَاحِبِهِ السَّابِقِ أَمِيرِ البِلادِ ، فَمَا كَانَ مِنْهُ وَقَدْ نَصَرَهُ الله عَلَىٰ عَدُوِّهِ إِلاّ نَهَضَ بِرَأْسِ رَجَبِ الذَّلِيلِ المُنْكَبِّ عَلَىٰ الأَقْدَامِ ، وَقَالَ لَهُ : (انْهَضْ فَلَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ وَمَنْ مَعَكَ) . وَزَوَّدَهُ بِبَعْضِ المَالِ وَأَطْلَقَهُ آمِراً أَنْ يُصَارَ بِهِ إِلَىٰ أَقْرَبِ مِينَاءٍ يَعُودُ بِهِ مَرْكَبُهُ إِلَىٰ مِصْرَ أَوْ إِلَىٰ حَيْثُ يَخْتَارُ بَعِيداً عَنِ الهِنْدِ . .

تَوَسَّلَ رَجَبٌ الذَّلِيلُ إِلَىٰ الأَمِيرِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ أَنْ يُبْقِيَهُ إِلَىٰ جَانِبِهِ لِيَكُونَ لَهُ خَادِماً مُطِيعاً ، فَقَالَ لَهُ : (اعْلَمْ يَا رَجَبُ أَنَّ ذَنْبَكَ عَظِيمٌ ، وَلَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ عِنْدَ مَقْدِرَتِي ، وَأَخْشَىٰ أَنْ أَلْقَاكَ بِجَانِبِي فَتَغْلِبُنِي نَفْسِي الأَمَّارَةُ فَأَقْتُلُكَ شَرَّ قِتْلَةٍ . . اذْهَبْ وَانْجُ بِنَفْسِكَ وَبِمَنْ أَطَاعُوكَ فِي الضَّلالِ وَالتَّآمُرِ . .) .

بَقِيَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ الذِي رَقَصَ بِهِ الفِيلُ أَمِيراً مُتَوَّجاً بِالعِزِّ وَالجَاهِ ، وَزَادَهُ الله رِزْقاً ، وَعَمَّرَهُ إِلَىٰ أَنْ أُتِيحَ لِيَ لِقَاؤُهُ المَيْمُونُ وَهُوَ عَلَىٰ كُرْسِيِّ الإِمَارَةِ ، وَحَدَّثَنِي بِحَدِيثِهِ العَجِيبِ الذِي نَقَلْتُهُ إِلَىٰ مَوْلايَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ . .

عَجِبَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمَا سَمِعَ وَسُرَّ بِهِ غَايَةَ السُّرُورِ ، وَأَمَرَ لابْنِ بَطُّوطَةَ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆